

نظرية الاسلام حول العبادہ

للاستاذ محمد سعود الانصارى

تعريب: الشيخ الصاوى على شعلان

ان جميع اعمال الناس لا تخرج عن امرين اما دفع الضرر أو التماس المنفعة فالانسان فى الشعوب القديمة رأى احداث الطبيعة و تبين خلال نظراته أن سنها أشياء ذات تأثير فى نفع الانسان وأن بعضها ذو أثر غير هذا، فظن أن التأثير مرده الى تلك القوى الطبيعية وأنها هى التى تنفع و تضر و من أجل ذلك اعتقد أنها آلهة، و من ثم عبدوا النار الموقدة والسياه الجارية والاشجار الباسقة الخضراء والحشرات المؤذية كالحيات والشعابين والعقارب و قدسوا السيارات السبع والنجوم فى مطلعها و مغيبها لتوهمهم أنها المؤثرة فى حركات هذا الكون وانها تمدالعالم بتأثيرها فعبدوا الكواكب. وقدعم هذا الاعتقاد حتى نجده الى الآن فى بعض المذاهب . و قد اطلقوا على ايام الاسبوع اسماء هذه السيارات فىيوم الاحد عند الهنود يسمى ”آدتوار“، و معناه يوم الشمس وسموا يوم الاثنين ”سوموار“، يوم القمر و هلم جرا. واسماء الايام فى اللغة الانكليزية لها نفس الدلالات والمعانى فالاحد (Sunday) يوم الشمس و يوم الاثنين (Monday) يوم القمر وهلم جرا .

و قد جاء الاسلام لتكريم الانسان و نطق القرآن الكريم بما يدل على تكريم

الله لآدم و ذريته فقال سبحانه ”ولقد كرّمنا بنى آدم“،(١)

كما صرح الكتاب الكريم بأن الأرض وما فيها والسموات وما عليها مسخرة للإنسان مخلوقة من أجله فدللت الآيات على أن الله سخر كل ما في هذا الكون من أرض و سماء لبني آدم، يقول الله سبحانه و تعالى ”الم ترأ أن الله سخر لكم ما فى الارض ” الى غير ذلك من الآيات و جعل آدم خليفة فى الارض . (٢)

و قد ذهبت الوثنية ببعض الناس مذاهبيها و سلكت بهم شعابا متفرقة فمنهم من عبد الملوك والطغاة والجبابرة من أمثال نمرود و فرعون، و قال فرعون : انا ربكم الا على (٣)، و اتخذوا من كهنتهم اشباه آلهة، و من هذا القبيل عبادة المهنود لكهنتهم المسمون ”باوتار“، و كذلك البوذيون يعبدون ما يسمى ب ”مهايير“ .

و لما كان فى هذا اللون من العبادة اذلال للكرامة البشرية وانحطاط لقدرة الآدمية نهى الله جل جلالته أن يتخذ الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله و لم يأذن للانبياء أيضاً بأن يقول أحدهم للناس ”كونوا عبادا لى من دون الله“، (٤) فلا احد من الانبياء والملائكة فى عصمتهم وقداستهم يصح أن يعبد، قال الله تعالى ”ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا“، (٥)

وما من دين ولا نبي الا ودعا الى عبادة الله وحده لا شريك له، ولكن الاقوام تسرب اليهم الشرك على امتداد الزمن و كان له عدة اسباب :

فمن ذلك انهم ”اتخذوا لله وصلته بخلقه رسوزا من التشبيهات والتمثيلات، و بعد بضعة قرون أصبحت هذه التمثيلات والرسوز آلهة معبودة و نسيت عبادة الله الواحد، كما أن المهنود مثلوا محبة الله لعباده بالمحبة التى تكون بين الام و ولدها، تارة بالمحبة الزوجية كذلك كان صنيع الرومان والاغريق فى صنع الآلهة. و لما كان الساميون لا يحبون ذكر انائمهم على الاعلان، ولا يقدمونهم

في معرض المشاهدات فقد مثلاً محبة الله لخلقة بالمحبة التي تكون بين الأب واولاده و قد اعتقد بنو اسرائيل ان عزيزا ابن الله وقد استاصل الله شأفة الشرك : بقوله: "ليس كمثل شئى (٣)،،،، أنا اعتقاد المسيحيين في أن سيدنا عيسى المسيح ابن الله فانه رد عليه ساخرا بقوله "وكانا يأكلان الطعام،،، (٧) و قال الشيخ قاسم النانوتوى رحمه الله بفسرا الآية الكريمة : ان الذى يأكل شيئا من الطعام فانه لا بد من أن يكون فى حاجة الى كل ما يوجد من الأشياء فيما بين السموات والارض اذ أن الغذاء الذى ينمو فى الارض يحتاج الى العناصر الطبيعية مثل الملح والهواء والماء و حرارة الشمس الخ و بناء على ذلك فان الذى يحتاج الى غيره لا يمكن ان يكون لها أو ابناله . فاستبعد جميع صور التشبيهات والتشيلات، و هذا هو معنى قوله "سبحان الله عما يشركون"، .

ولما تبين لبعض الاقوام مظاهر صفات الله المختلفة ظنوا أن ثمة آلهة متعددة كثيرة و من ذلك ما زعمه الهنود من أن الخالق والمحيي والمميت ذوات مختلفة لآلهة متعددة و جملة آلهة عند هؤلاء ثلاثة وهى على الترتيب برهما و شنو و شيو وقد أوضح القرآن الكريم أن هذه الصفات كلها لموصوف واحد وهو الله وحده الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر هو الله الخالق البارئ المصور .

و شاهد بعض الناس الاعمال المختلفة فى مظاهر الطبيعة، كالهزات و العواصف والامطار والحروب فتوهموا ان لكل عمل منها، لها خاصا و كذلك تشل الزردشتيون وجود الميبن احدهما للخير والآخر للشر وهما على الترتيب يزدان واهرسن .

والاشياء فى نفاذ اسلام، وكذلك الحال، ليس فيها خير محض و شر محض، وانما يحكم بالخيرية أو الشرية طبقا لعمار الانسان لهذه الاشياء، فمثلا يكون النار حيرا حين تستخدم لاحضار الطعام وشرها اذا استعلت لا حراق بيوت الناس، وقد رد الله تعالى هذا الاعتقاد بقوله "فالمههما فجورها و تقواها،،، (٨) وفى ذلك

دليل على أن الهام النفس في الحالتين خيرها وشرها إنما هي مصدره قوة اله واحد، ولذلك قال: "لا تتخذوا المهين اثنين إنما هو اله واحد،" (٩).

ان فهم المعراج الروحي لدى الأئمة السابقة كان يقوم على تصور ان العبادة الصحيحة هي تعذيب الانسان نفسه، و تجرده من رغباته المادية، و على مقدار حرمانه من لذائذ الدنيا، و من هنا نشأت في الهند فكرة العزوف عن الدنيا والزهد و تعذيب الاجسام (يوجا) كما ان هذه الفكرة كانت عند المسيحيين مصدر الرهبانية التي يملأ أصحابها الدير في كل مكان من الدنيا، فقد كان الهنود وما يزالون يروضون انفسهم في هذه اليوجا على الوان من العذاب والارهاق، كرفع الايدي مدة قد تنتهي بالشلل، و من ذلك تجردهم من الملابس في البرد القارس والحرق الشديد، والاقتيات باوراق الاشجار، و من ذلك قضاء الوقت الطويل تحت وهج الشمس و حرها او تعليق انفسهم معكوسا باغصان الدوحة السابقة وفوق الآبار الى غير ذلك مما يستفيض به القول، وقد جاء الاسلام يبين في الكتاب الكريم والسنة النبوية ان نعم الله سبحانه، و اباح لهم ان يأكلوا مما في الارض حلالا طيبا ولم يحرم الله زينته التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وانه يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

و عندما اراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يحرم على نفسه العسل بسبب واقعة قال الله تعالى: يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك؟ (١٠). و امر الناس ان يتحلوا بزينة حين يغشوا المساجد والجماعات بقوله: "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد،" (١١) و أمر باختيار الاغذية النقية حين قال: "كلوا من طيبات ما رزقناكم،" (١٢) كما استن على الانسان بأن الدواب زينة كما انها منفعة حين ركوبها فقال: "لتركبوها وزينة،" (١٣) — و امر الرسول صلى الله عليه وسلم باتخاذ الزينة بين الأزواج رجالا و نساء على السواء، و صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدهن و يكتحل و يتخذ السواك.

وبع ان الاسلام اَباح للمؤمن أن يكون له مظهر جميل مقبول فقد رسم حدودا و وضع قيودا فحين وجهه الى الطعام و الشرب نهى عن الاسراف قائلا :
 ”و كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين(١٤) كما أن بعض المواد تناولها التحريم .

ان الاسلام نتيجة لكل ذلك، لم يجعل ترك الهوايات و اللذات قربة و عبادة بل وجه الاصلاح والقصد والاعتدال فيها، و حين يستمسك المؤمن بأمر الله، و تصدق نيته، تكون مطالب الانسان و شهواته عبادة في ممارستها و تركها امتثالا لاحكام الشريعة في ناحية والتمتع بنعمة الله من جهة أخرى .

فمنظورية العبادات في الاسلام كلها تتركز في كلمة التوحيد التي يكون الانسان مؤمنا عند الاقرار بها، فالكلمة الاولى من الشهادتين ”لا اله الا الله“، تعنى انه ليس ثمة اى معبود يستحق العبادة والعبادة هو الخضوع لمن يعده مالك النفع والضرر يعنى اطاعته فى الاوامر والنواهي، فالذى يقول لا اله الا الله يعاهد على أن مقصد حياته يكون طاعة الله و طلب رضاه، و يتضح هذا المفهوم من الآية الشريفة
 ”ان صلاتي و نسكي و محياي و سماتي لله رب العلمين“،(١٥) .

ولكن كيف نعبد الله و ماهى الوسائل التي توضح لنا أشكال العبادة و تحدد صور أدائها؟ من الذى يعرفنا و يدلنا عليها؟ ان جواب ذلك فى الشطر الثانى من الشهادتين: و اشهد ان محمدا رسول الله، يقربأن هذا الرسول قد جاء برسالة الحق من عند الله فكل عمله من عند الله و بوجيهه فبالشطر الاول تعين مقصد الحياة و بالشطر الثانى تحدد طريق العمل فى الحياة و الذى يرسم لنا الطريق فى الشطر الثانى قوله تعالى : ”قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله“،(١٦) .

و تصير الاعمال عبادة بالنسبة والاقترناء برسول الله فى ادائها، فالفرائض فى أوقاتها عبادة، والتحلى باخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم فى الما كل والمشرب

فمثلا غسل اليدين والتسمية والاكل باليمين وانتقاء الغذاء الصحي، لحفظ الحياة كل ذلك طاعة و عبادة، و كذلك التجارة الصادقة طاعة و عبادة واقامة العدل و خدسة الصالح العام و تربية النشء و بر الوالدين في ذلك كله طاعة يثاب عليها المؤمن مع ما يناله من سعادة دنيوية و فائدة مادية .

اذا قمنا باداء عمل على طريقة رسول الله كعبادة من العبادات بدون نية قبل العمل وانما على سبيل الرياء والتظاهر او الصدفة او نحو ذلك دون اخلاص النية لله لم يكن ذلك عبادة مقبولة تستحق الثواب، و مثال ذلك اداء الصلوات امام الناس ليقال انه من المصلين او ينقطع طول النهار عن الطعام والشراب لفقدان ما ياكله و يشربه او لانه غير راغب في ان ياكل او يشرب او لأى سبب من الاسباب دون نية الصوم لم يكن ذلك كله سما يعد عبادة .

والدين يعد كل ما رزقنا من الأموال والأفئس المواهب والصلاحيات امانة من الله عند الانسان - فيجب ان يكون الحصول على هذه الامانات وفق احكام الشريعة حتى يكون الانتفاع عبادة و تكون الفائدة حينئذ ذات وجهين ففي الوقت الذى ينمتع فيه الانسان بنعمة هذه الامانة فى الدنيا تكون له فى الآخرة ثوابها فى جنة الله .

والدعاء وهو التماس الرغبات و طلب الحاجات من الله يلزمه نفس ذلك الاخلاص باعتباره من العبادات وفى الحديث أن الدعاء سخ العبادة - فالداعى حين يرفع يديه بالضراعة الى الله يكون مستقيفا بأن الله هو وحده الذى يملك النفع والضرر وانه هو القادر على قضاء الحاجات و يكون كذلك سوفا باحتياجه الى الله و من ثم كان الدعاء سخ العبادة - ولا بد من الأخذ بالاسباب واداء الواجبات نحو العمل ثم يكون الدعاء بعد ذلك لان الأخذ بالاسباب ثم الدعاء من سنن المرسلين، وحينئذ تكون ذلك كله من العبادات التى يرجى نفعها فى الدنيا و ثوابها فى الآخرة .

واقاست بعض الملل وسائط بين العابد والمعبود واذاعوا أن العبادة لا تقبل من صاحبها بغير الوسطة كانه لابد من توقيعه عليها قبل أن تصل الى مستقر الجزاء، الى حد أن اعتقد الهنادك أن البراهمة خلقوا من يمين الله و من ثم كان توسط البرهمي شرطاً في قبول العبادة . و في عقيدة المسيحيين أن الكهان على المستويات المختلفة لهم القرار النهائي في دخول رحمة الله، فهناك الاعتراف بين يدي الكاهن والباباوات و من في حكمهم، يصدرن أحكاماً تصبح هي من الدين نفسه على قاعدة أن ما يحلونه في الأرض يكون حلالاً في الجنة و بالعكس، فاليهم غفران المعاصي او الطرد من الرحمة لمن يشاؤون، فقد جاء الاسلام يخلص البشر من الوان الاستعباد . و كل انسان يستول عن نفسه أمام ربه، وكل يعبد الله في غير حاجة الى الوسطة، قال الله تعالى : واذا سألك عبادي عني فاني قريب، (١٧) وسوى الاسلام بين الجميع في ما يؤدون من الطاعات لربهم فكل مسلم صالح يؤم المسلمين في الصلوة و يقودهم في الجهاد .

واراد أتباع بعض الملل أن يختصوا الخالق بانفسهم دون سواهم فمنهم من خصه بطبقة دون طبقة، او شعب دون شعب، وأن ارادة الخير يختص بها قوم دون قوم كما يعتقد الهنادك أن الخير في الدنيا مقصور على الآريين منهم، بل انهم يتجاوزون ذلك الى احتكاك الديانة فلا يجيزون للمنبوذيين و للطبقات السافلة منهم أن تدخل معابدهم أو تغشى هياكلهم او تعبد عبادتهم أو تنتسب الى ملتهم، وزاد الطين بلة انهم يمنعون الطبقة منهم أن تدخل في أي دين غير دينها الموروث عن اسلافها، واليهود يرددون كلمة اله اسرائيل وانهم شعب اله الذين اختصوا به و برحمته و قالوا لن تمسنا النار الا اياماً معدودة، واسفار العهد القديم مليئة بما لا يتسع له هذا المقال .

وكان للايرانيين القدساء نصيبهم من هذا الاختصاص المزعوم بالديانة الزردشتية، وأوضح الاسلام أن الله تعالى ليس خاصاً بشعب ولا طبقة ولا مذهب

ولا اقليم كما خصه الايرانيون قديما، وانما هو رب العلمين ورب الكائنات بسماؤها وارضها للخلائق جميعا، والناس أمام الله سواء ابيضهم واحمرهم، ان اكرسكم عند الله اتقاكم، وقد بعث انبياءه الى كل الاسم، وان من امة الا خلافيها نذير، و لكل قوم هاد، كما بين ايضا الرسول الكريم في حجة الوداع و في فتح مكة كلكم من آدم و آدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على احمر ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى، ان اكرسكم عند الله اتقاكم، على اختلاف الفاظ الروايات في مراجع الحديث .

والاحكام القرآنية شاملة لجميع الافراد ولا يميز الدستور الاسلامي بين حاكم و محكوم، و على قدر اخلاص المؤمن و نيته يكون القبول في ما هو عبادة و في ما يتمتع به من النعم في هذه الحياة حتى يصبح طعامه و شرابه و سلبه عبادة حين ينوى بذلك المحافظة على صحته و تجنب الضرر و يقيم على النعمة بالشكر، كل ذلك يحول المتعة الدنيوية الى عبادات و قربات ينال بها المثوبة والاجر، ولا فرق في العقوبة على الناس بين أن يكون مرتكبه كبير المنزلة او صغيرها فالناس سواسية كاسنان المشط .

و أوصى الاسلام بالاعتدال والقصد فلم يكلف احدا أن يقضى يومه صياما و ليله قياما وانما يحصل القصد حتى في العبادات فيصوم و يفطر و يقوم و ينام كما في الحديث، وأن لا يتخلى عن واجباته المعاشية محتجا بالانقطاع للعبادة، كما قال الرسول الكريم لعبد الله بن عمر: ان لجسدك عليك حقا ولعينك عليك حقا و لزوجك عليك حقا ولزورك عليك حقا (١٨) .

كما في قصة اولئك الذين ارادوا أن يقضوا حياتهم في صلوة و صوم و انعزال بحجة أن رسول الله على سكينة من الله غنية عن مثل هذه العبادات وسع ذلك يصلى و يصوم كثيرا فدعاهم رسول الله و بين لهم أنه أخوفهم واقربهم الى الله ولكنه يصوم و يفطر و يقوم و ينام كما أسلفنا، ثم قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم فمن رغب عن سنتي فليس مني (١٩) . على أن المسلم لا ينبغي أن يشغله واجب عن واجب ولا تلميه أعمال الدنيا عن أداء الشعائر، ولا يتعلل بالنسك لاهمال السعي في طلب الرزق الحلال .

و أخيرا ان الله جعل الرسول الكريم في حياته قدوة وأسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر و في الاقتداء بهديه نجاه للمسلم قال الله تعالى : فاتبعوه لعلكم تهتدون .

المراجع

- (١) بنى اسرائيل : ٧ .
- (٢) الحج : ٦٥ .
- (٣) النازعات : ٢٤ .
- (٤) آل عمران : ٧٩ .
- (٥) آل عمران : ٨٠ .
- (٦) الشورى : ١١ .
- (٧) المائدة : ٧٥ .
- (٨) الشمس : ٨ .
- (٩) النحل : ٥١ .
- (١٠) التحريم : ١ .
- (١١) الاعراف : ٣١ .
- (١٢) البقرة : ٥٧ .
- (١٣) النحل : ٨ .
- (١٤) الانعام : ١٤١ .
- (١٥) الانعام : ١٦٢ .
- (١٦) آل عمران : ٣١ .
- (١٧) البقرة : ١٨٦ .
- (١٨) مشكوة المصابيح ص : ١٧٩ .
- (١٩) البخارى طبع ليدن ج ٣ - ص ٤١١ .